الفصل الثاني

الشهود..

obeikandl.com

obeikandl.com

١

ضرب الملك على قبضة الكرسي بيده وقال منفعلاً:

- ما كان علي أن أصدر مثل هذا القرار . . . رجل غريب دخل إلى مدينتي لاجئا . . يريد الأمان .. أرسل وراءه من يبحث عنه يخيفه أكثر؟!!

ثم نظر إلى الرجال عن يمينه وشماله :

- وأنتم .. أما كان الأجدر بكم أن تشيروا علي بقرار غير هذا ؟!

obeikandl.com

تحرك الرجل القصير الذي كان يجلس إلى جانب الرجل المغمض العينين وقال:

- ليس في قرارك ما يعيب أيها الملك .

- أنت .. أنت قلت بنفسك : إنه هارب من بلد يحكمه ملك كافر.

أيأتي إلى بلد يحكمه رجل مؤمن ثم يطارد؟!

- يا مولاي ..

- اسكت..

لا أريد حاشية تجر نفسها وتجرني معها إلى جهنم !! أشيروا علي بما ينفع الأمة وينفعني وينفعكم . كيف أستطيع أن أصل بالسفينة إلى شاطئ السلامة ؟

قال الرجل المغمض العينين :

- أيها الملك .. أرجو أن تنتظر .. فلعل الله أن يجعل فيما أقدمت عليه خيراً كثيراً .

لم ينتبه الجميع إلى الحاجب الذي دخل وقال :

- رجل لديه ما يعرفه عن الغريب يا مولاي .

- أدخله .

- السلام على مولاي الملك ..

أنا يا مولاي رأيت الغريب .. كان . . .

وراح يتكلم بسرعة ، وبلا فاصلة ، كأنه يخشى أن ينسى كلمة .. أو تفوته كلمة .. أو تعترضه كلمة !!

أشار الملك بيده :

- اجلس .

- نعم يا مولاي .. إنه .

- اجلس .. تريث .. ثم قل ما عندك بهدوء .

جلس الرجل .. ثم أخذ نفساً عميقاً .. وقال :

- أرجو المعذرة يا مولاي

- هل رأيت الغريب؟

-كيف عرفته ؟

- أين رأيته ؟

أشار الملك إلى جلسائه الذين انهالوا على الرجل بأسئلتهم:

- مهلا.. مهلا.

ثم التفت إليه وهو يبتسم وقال :

obeikandl.com

-كيف عرفته ؟

- هو عرفني

ثم استدرك بسرعة :

- هو كلمني .. كان حاسر الرأس .. مضطرباً .. خائفاً .. سمعته يناديني بصوت خفيض : رجاء .. رجاء ..

تبسم الملك :

- اهدأ يا رجل .. وتمالك نفسك .. نحن نسمعك .

- نعم يا مولاي ..

وضع يده اليمنى على كتفي .. وقادني إلى زاوية على جانب الطريق.. بعيدة عن المارة ..

أشار الرجل إلى الزاوية البعيدة من القاعة .. وتابع حديثه:

- همس في أذني قائلا :

- أين السوق ؟

قلت :

- لماذا ؟

أجابني وهو يتلفت حوله :

obeikandl.com

– أريد أن أشتري طعاما .

ثم أضاف متعجباً :

–كيف تغيرت معالم المدينة؟.

– لم تتغيّر .

فنظر إلي نظرة صارخة:

– هل كانت بالأمس كاليوم ؟

– نعم .

– دلني على السوق يا رجاء .. دلني .. فإن معالم المدينة تبدو في نظري وكأنها قد تبدلت .

– أنت خائف؟

– نعم .

– مم؟

– ألا تعلم بما حدث ؟

– ماذا حدث ؟

– أرسل الملك جنوده للقبض علينا فهربنا .

– ماذا حدث؟

–أرسل الملك جنوده للقبض علينا فهربنا .

obeikandl.com

-ملكنا؟!

-نعم .

-الملك الذي يحكم هذا البلد ؟

-من غيره يا رجاء .. من غيره ؟!

-لماذا ؟!

-لماذا أيضا؟! .. ماذا دهاك ؟ .. لقد أرادوا أن يرجمونا أو يعيدونا في ملتهم فهربنا .

-في ملة الملك ؟

-في دين الملك.

-وماذا في دين الملك .. إنه ملك صالح .

-أنت تقول هذا يا رجاء؟

-نعم .

-كنت أظن أنك معنا.. فأنت على دين الملك إذن؟

-نعم .. أنا على دينه .

ثم تعال أخبرني .. من أنت ؟

فصعق الغريب .. ونظر إليّ وهو لا يصدق :

-من أنا ؟ .. رجاء !!

-إنني لا أعرفك .. ولم أرك من قبل .. وأنت تناديني رجاء وأنا اسمي سيمنس ..

دهش الغريب عندما سمع هذا .. ووضع يده على رأسه وكأن الدنيا قد مادت به .. وتمتم بصوت خفيض:

أستغفر الله .. أستغفر الله .. أستغفر الله العظيم .

سكت الرجل، وراح يتطلع في الوجوه التي كانت تستمع إليه بكل اهتمام.

- هذا كل ما حدث يا مولاي.

ثم أضاف:

- الحق يا مولاي .. لقد كان مهيباً .. جليلاً .. صادقاً.

سأله الملك :

- هل رآكما أحد؟

- لا يا مولاي .. نعم يا مولاي .. على مسافة بعيدة كان أحد الرجال يبيع الخبز .. وأطفال يلعبون .. وفتاة تطرق الباب على جارتها .. وسنور يعاتب أخاه..

مال الملك بجسمه إلى الأمام وسأله :

- وكيف علمت أنه كان يعاتب أخاه؟

obeikandl.com

تردد الرجل قليلاً .. ثم حاول أن يقلد صوت السنور:

كان يقول له : ميو.

– فإذا كان يعاركه فماذا يقول له؟

ألقى نظرة سريعة على الحاضرين ، ثم عاد فنظر إلى الملك وقال :

– يقول له : ميو .

– فما الفرق بين الأولى والثانية ؟

– إذا كانت للعتاب فإنه يقولها بنغمة مهذبة

أما إذا كانت للسباب فإنه يقولها بقوة وعنف .

– فأنت تعلم لغة السنانير

سكت الرجل ..

وتبسم الملك .

وكتم الحاضرون ضحكة كادت تفلت منهم لولا هيبة الملك .

قال الملك :

– اذهب راشداً.

قبل أن يلتفت الملك إلى جلسائه ليسألهم عن رأيهم ..

أقبل الحاجب وقال :

- هذه امرأة تريد مقابلتكم يا مولاي .

- أدخلها .

يخرج سيمنس مسرعا.. وتدخل المرأة .

obeikandl.com

٢

امرأة .. بهية الطلعة .. جميلة .. محترمة .. كأنها من نساء الملوك .. لا تتجاوز الأربعين من عمرها .. ولكنها تبدو أصغر من ذلك بكثير.. بلباس أنيق طويل محتشم ..

- السلام على مولاي الملك .. السلام عليكم جميعا ..

أجاب الجميع :

- وعليك السلام .

أشار الملك إلى الكرسي الذي جلس عليه سيمنس قبل قليل :

- تفضلي .. اجلسي .

جلست المرأة ..

obeikandl.com

ثم راحت تتكلم بهدوء .. وسيطرة كاملة على كل كلمة تقولها.. كانت كأنها تزن كل كلمة قبل أن تقولها .. أو كأنها وزنتها جيدا قبل أن تأتي.. ثم راحت الكلمات تنحدر من شفتيها الرقيقتين كأنها اللؤلؤ المنظوم ، فراحت تطرق القلوب قبل الآذان

- أنا رأيت الرجل يا مولاي ..

كنت قد خرجت أنادي بائعة اللبن عندما رأيته لفت نظري زيه الغريب.. فأطلت النظر إليه فظن أني أعرفه.. أو ظن أنه يعرفني ..

اقترب بخطوات حذرة ، وسلم علي بصوت خفيض ثم تلفت حوله وقال بصوت كالهمس :

- لا تخشي .. إن ابنك بخير .

أرعبني كلامه .. فهتفت :

- ماذا فعل ابني .. ماذا جرى؟

قال مؤكداً .. ومحذراً :

- لا ترفعي صوتك .. لا تخافي .. إنه في مكان أمين .. لا تطاله يد الملك.

هتفت مرة أخرى:

- ماذا فعل ابني ؟

قال:

- أو لا تعلمين ؟

- كلا .

- أو لم يحدثك؟

- أبداً

- قال لي إنه حدثك بكل شيء .. وأنت على دينه .

- أنا على دينه .. وهل اختار غير الإسلام دينا؟!

تلفت حوله .. ثم قال بهمس :

- لا ترفعي صوتك ..

ثم مضى يقول :

- إنه يخشى أن يقبض عليه جنود الملك فيعيدوه في ملتهم .. أو يرجموه .

لقد هربنا بالأمس .. وبتنا في مكان أمين .

- هل بات ابني معكم ؟

- نعم .

نظرت إليه بارتياب وسألته :

obeikandl.com

- عمن تتحدث ؟

- عن ابنك .

- ابني بات عندي هذه الليلة .

- الآخر .

- ليس لي غيره .

- ألست رقيقة .. أم ..

- أنا اسمي ناجية .. أم مسعود .

ذهل الفتى عندما سمع كلامي .. ثم راح يعتذر .

- أعذريني يا سيدتي .. أعذريني .. ما الذي حصل لي هذا اليوم ؟..

أتكون مدينتي قد أزيحت من مكانها وحلت محلها غيرها؟!

لقد تكلم يا مولاي بكلام مثل هذا لم أفهمه .. أو لم أستوعبه.

تنهد الملك .. وشكر المرأة .. ثم قال :

- فهو يظن أن هذه مدينته التي خرج منها هارباً ..

من ملك ظالم جائر..

obeikandl.com

- حاشاك يا مولاي .

- قلت إنه يظن ..

ثم راح الملك يردد بصوت خفيض :

- ملك .. كافر .. ظالم .. جائر .

كان يحكم هذه المدينة بالأمس .

هرب منها الفتى مع إخوان له .. ثم عاد إليها اليوم .

كيف تفسرون هذا ؟

تنحنح أحد الحاضرين الجالسين على الجهة اليسرى وقال:

- إن الأمر يعتمد على تفسير كلمة : الأمس .. يا مولاي .

قال الإسكندري :

- الأمس معناها البارحة .. اليوم الذي سبق يومنا هذا .

قال الملك :

- ومعناها مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله .

قالت المرأة :

- ولكن الفتى قصد بالأمس .. اليوم الذي سبق يومنا .

- نعم .

أضاف الملك بعد قليل :

- إنه لأمر محير ..

اذهبي راشدة .. بارك الله فيك .

تخرج المرأة .

obeikandl.com

٣

– هذه فتاة لديها ما تدلي به عن الغريب يا مولاي .

– أدخلها .

فتاة طويلة رشيقة أنيقة .. دخلت بخطوات وئيدة حيية هادئة .

– السلام على مولاي الملك .

– وعليك السلام .

أشار بيده :

– تفضلي .

جلست الفتاة ..

كانت ترتدي ثوبا بلون الورد..تلف شعرها الذهبي بقطعة من الحرير الأبيض اللامع .. جلست على الكرسي

obeikandl.com

وبسطت كفيها على ركبتيها .. ومدت أصابعها المحلاة بخواتم ثمينة .

قال الملك يستحثها على الكلام :

- هل رأيت الرجل الغريب ؟

- نعم يا مولاي .

-كيف عرفت أنه هو ؟

- إنه يا مولاي ..

واعتدلت في جلستها ورفعت صدرها وراحت تصف الغريب وكأنها تنظر إليه :

- إنه يا مولاي شاب صبيح مليح .. حسن الثياب زكي الرائحة .. جيد الكلام .. يسرع أحيانا.

- هل كلمك ؟

- نعم يا مولاي .

- ماذا قال؟

-كنت أسير مع صاحبتي .. فتاة تسكن في محلتنا اسمها سحابة.. عندما أسرع ورائي وراح يناديني بصوت اجتهد أن يكون خافتاً:

obeikandl.com

- صحيفة؟

- صحيفة؟

- هكذا ناداني يا مولاي .

- أنت اسمك صحيفة ؟

- أنا اسمي درة

- أنت اسمك درة .. ولكنه ناداك صحيفة؟

- لقد ظن بأنني ابنة عمه .

- قفي يا صحيفة.. قفي .

ثم قبض على يدها وقال :

-لِمَ لم تلتفتي إلي .. دعي هذه الفتاة تبتعد ..

أريد أن أحدثك على انفراد ..

أتظنين أنني أنا الذي وشيت بأخيك عند الملك ؟

أنا لم أر الملك طيلة حياتي..

- اترك يدي .. اترك يدي ..

- ليس قبل أن تعرفي حقيقة ما حدث..

جاركم اليهودي هو الواشي..

- اترك يدي .

obeikandl.com

– أنا أشي بابن عمي .. بأخي .. إنه على ديني .. أفهمت إنه على ديني.

ثقي يا صحيفة..

ثقي بأن جاركم اليهودي هو الذي وشى بأخيك عند الملك .. وهو الذي دل الجنود عليه .. وسلمه لهم .. فأخذوه ورجموه لأنه لم يرجع عن دينه.. أفهمت يا صحيفة؟

إنني لم أفعل ذلك أبدا.

سكتت الفتاة قليلا لتلتقط أنفاسها.. أو لترى أثر كلامها على الملك والحاضرين .. كان الجميع ينظرون إلى وجهها الصغير المستدير وعينيها الصفراوين باهتمام بالغ .. لا يريدون أن تفوتهم كلمة مما تقول ..

–كان يا مولاي شديد الحذر .. قوي اللهجة .. كان يخشى أن يراه أحد.. أو يسمعه أحد .. كان يضغط على رسغي بقوة ..

لعله لم يشعر بأنني أتألم من شدة قبضته على يدي .

– وماذا فعلت ؟

– صرخت .. قلت له : اترك يدي .. إنك تؤلمني ثم قلت له :

– من أنت ؟

فنظر إلي نظرة غريبة وقال :

– تنكرين معرفتك بي يا صحيفة ؟

أنا ابن عمك .

– أنا ليس لي عم .. ولا ابن عم .

– اتقي الله يا صحيفة .. اتقي الله .

– أنا اسمي درة ..

ولا أدري عم تتحدث ..

أراد أن يصرخ في وجهها .. ولكنه كتم صوته .. وصرّ أسنانه بشدة:

– لماذا يا صحيفة .. لماذا تنكرين ابن عمك؟

لان قلب الفتاة فقالت :

– أنا أقول الحقيقة.. أنا اسمي درّة .. وليس لي عم ولا ابن عم .

هذه صاحبتي سحابة.. سلها إذا شئت.

obeikandl.com

سحابة .. سحابة .

التفتت سحابة:

– نعم يا درّة .. ماذا تريدين ؟

– هل سمعت ؟

لقد أجابت : يا درّة .. فأنا اسمي درّة وليس صحيفة أرجوك . .

– لكنك تشبهين ابنة عمي .. في الطول .. في الجمال .. في الصوت.. في الشكل .. إلا في الزي ..

إنها لا ترتدي مثلك ..

إنها لا تحلي أصابعها بمثل هذه الخواتم .

إنها..

– أ رأيت ؟ فأنا غيرها .. أنا اسمي درّة .

استمرت الفتاة تروي قصتها .. والعيون معلقة بها والآذان تتلقف كلماتها كأنها السحر.

– ترك يدي تسقط من يده ..

ثم نكس رأسه .. وراح يعتذر بكلمات لم أفهم منها شيئا.. ثم انصرف.

ساد القاعة صمت طويل ، كان الجميع خلاله يفكرون في كلمات الفتاة التي سحرتهم بحلو منطقها وحسن حديثها .

سألها الوزير:

-كيف كان يبدو؟

لم تنظر إلى الوزير.. نظرت إلى الملك وأجابت :

-كان يا مولاي جميلاً.. جميلاً جداً.. كان حاسر الرأس ، بشعر أسود لامع .. تحتضن وجهه الجميل لحية سوداء خفيفة ، شاربه خفيف رفيع فاتن ..

كان يا مولاي .. كأنه قادم من الآخرة .. من الجنة!!!

تبسم الملك وقال:

-أشكرك يا بنتي .. لم يصفه أحد كما وصفته..

هل من شيء آخر؟

-لا يا مولاي .

- هل تريدين أن تذهبي ؟

- إذا سمحت يا مولاي .

أشار بيده :

- تفضلي.

نهضت الفتاة واقفة، ورجعت قليلا إلى الوراء.. ثم عادت وكأنها تذكرت شيئا:

- هل ستقتلونه إذا قبضتم عليه ؟

ارتسمت على وجوه الحاضرين ابتسامة خفيفة:

وقال الملك :

- إنما نريد أن نعرف ما عنده..

اذهبي راشدة .

عندما ذهبت الفتاة .. التفت الملك إلى جلسائه وقال :

- ماذا ترون ؟

قال الرجل الذي يجلس إلى جانب الرجل المغمض العينين:

- إنها فتاة صغيرة أخذت بمظهر الرجل وحديثه فجاءت تدافع عنه .

تنحنح رجل آخر كان يجلس إلى جانبه وقال :

- نعم .. إنها جاءت تدافع عنه بهذا الأسلوب .. ولكنها لم تؤخذ بجمال الرجل.. إنها رأت الإخلاص مجسدا فيه .. رأت ما لم يستطع غيرها أن يراه لحد الآن .

قال رجل آخر .. كان يحاول أن يتكلم في كل مرة فيسبقه غيره.

كان ضعيف الصوت كأنه يخرج من بئر عميق:

- لعل الرجل قد أخطأ الطريق إلى مدينته..

فجاء إلى مدينتنا.. أو توهم .. أو .. واختفى صوته كأنه كان يبلع الكلمات ولا يخرجها ثم سكت!!

قال الإسكندري:

- إنه لم يتوهم.. ولم يتخيل.. لقد مر به كل ما ذكر . ولكن أين.. ومتى ؟! لعل السر يكمن في الكلمة التي قالتها الفتاة دون وعي: كأنه قادم من الآخرة !!!

٤

دخل الحاجب على غير عادته.. كان يحاول أن يكتم ضحكة تريد أن تفلت من شفتيه:

– هذا رجل .. جاء .. ليحدثكم..

كان يريد أن يقاوم الضحك بكل شفتيه .. ولكنها أقوى منه .

– عن .. عن الرجل الغريب .. يا ..

راح يقاوم بكل قوة..

– يا مولاي .

نظر إليه الملك نظرة صارمة وقال :

– أتضحك ..؟

جمد الحاجب في مكانه..

واختفت الضحكة كأنها لم تكن.

obeikandl.com

– أنا يا مولاي .. إنه .. هو .. جاء راكضا.

– أدخله .

دخل الرجل مسرعا وهو يلهث .. كان يحمل منديلا كبيرا يمسح به العرق الذي تصبب على وجهه ورقبته. كان بدينا قصيرا .. مدور الوجه. . منفوخ الخدين .. أحمر .

– السلام على مولاي الملك .

السلام على الوزير .

السلام عليكم .

– وعليك السلام .

راح الجميع ينظرون إليه .. حتى الجليس الذي كان يبدو كالنائم فتح عينيه ، وأخذ ينظر إليه .. يراقب حركة رأسه ويده وفمه.. وكل بدنه!

– تفضل.

– أنا يا مولاي.

أشار الملك إلى الكرسي :

– اجلس

– أنا رأيت الغريب

obeikandl.com

مسح وجهه ويده بالمنديل :

- رأيته وكلمته.

أشار الملك بيده:

- اجلس .

- يا مولاي.. كان يحمل صرّة فيها طعام.

- اجلس وتريث.. وخذ كأسا من الماء.. ثم حدثنا بعد ذلك .

- نعم .

أسرع الحاجب فجاء بالماء في كأس جميلة يحملها في صينية من الزجاج .

أخذ كأس الماء.. وحاول أن يشربه بتريث ولكنه لم يستطع .. فراح يشفطه شفطا.. ثم أعاد القدح الفارغ إلى الحاجب وهو يقول :

- الحمد لله .. إنه لذيذ.

- هل تريد كأسا أخرى؟

- لا يا مولاي.

وتصبب العرق سريعا من جسده ، فراح يمسح وجهه ورقبته وصدره!

– نعم .

– يا مولاي .. كنت قد التقيت بصاحبي .. الرجل المدعو سيمنس.

قال الوزير يخاطب الملك .

– الذي حضر هنا قبل ساعة.

هز الرجل البدين رأسه:

– نعم يا مولاي .. وحدثني عن الرجل الغريب..

ووصفه لي فلما رأيته عرفته .. وبادرته بالكلام .

– أنت كلمته؟

– نعم يا مولاي .. أردت أن أوهمه بأنني أعرفه..

بسطت إليه يديَّ الاثنتين وقلت:

– أهلا .. أهلا.. بالصديق العزيز الغالي . دهش الفتى وقال :

– هل تعرفني ؟

قلت :

- نعم .. رحم الله ذلك الوالد الطيب .. رحم الله أباك .. كان رجلا عاقلا كريما نظيفا .

اطمأن الشاب فقال :

- صدقت .. كان كما ذكرت .

ثم تنهد وقال :

- لقد ظننت أنه لا يعرفني في هذه المدينة أحد!!

تصور يا .. ما اسمك؟

- اسمي كوكب.

- تصور يا كوكب .. بالأمس فقط خرجت من هذه المدينة .. وعدت إليها اليوم .. فإذا كل شيء فيها قد تغير .. كل شيء.

- هذا يحدث لكثير من الناس .

- أنا أتكلم عن المدينة..

لا .. لم أسمع بأنه قد حدث مثل هذا لأحد هل ضاعت مدينتي؟!

هل اختفت من الوجود ؟!

ولكن أخبرني يا كوكب.. أين يقع بيتي؟

- بيتك؟

- نعم .

- أنت تسألني عن بيتك؟

- نعم.. ألم تقل أنك تعرفني؟

- نعم أعرفك .. أعرف والدك .. وكنت أراك معه .

- ما اسمه؟

- أنت .. أنت .. أنت تسألني عن اسم أبيك؟

- إذا كنت تعرفه.

- لا أتذكر .

تغيرت لهجة الشاب فقال بحدة:

- أنت تكذب يا كوكب .

- أنا؟

- أنت لا تعرفني ..

ولا تعرف أبي..

أنت تريد أن تستدرجني بالحديث حتى أبوح لك بأسماء إخواني ومكانهم.. فتذهب إلى الملك فتشي بهم.

- لا .

– نعم.. أنت تريد أن تسلمني إلى الملك وجنده أنت ..

لكن لا.. لا أريد أن أقول فيك أكثر من هذا .

ثم تركني وذهب..

فأسرعت لكي أخبركم بما حدث يا مولاي.

تبسم الملك وقال :

– ما كان عليك أن تكذب.. لا سيما أنه اطمأن إليك ووثق منك .

– غلطة.. إنها غلطة يا مولاي .

سأله الوزير قائلا:

– أية فكرة كونتها عن الرجل.. ؟

هل تظن أن الرجل قد صدقك؟

كيف تفسر قوله: إنه خرج من هذه المدينة بالأمس ثم عاد إليها اليوم..

فإذا كل شيء فيها قد تغير؟

هل سألته .. ماذا تغير فيها؟

بلع الرجل البدين ريقه ، وبدا وكأنه لم يستوعب شيئا مما سمع .. فقال متوسلاً :

- أرجوك يا مولاي.. أنا لا أستطيع أن أفكر مثلك .. أنا.

قال الملك وهو يشير إلى الوزير:

- اتركه .. دعه يذهب

لكن الحاجب دخل مسرعاً وهو يقول:

- لقد قبض على الرجل الغريب يا مولاي .

* * *

obeikandl.com